"السلطانة مهرماه"

انتهت أيام الشتاءِ الباردةِ وهدأتِ الرياحُ الشتويّةُ العاصفةُ، وقد تساقطتْ أوراقُ الأشجارِ اليابسةُ الصفراءُ على الأرضِ حتى تَبَعْثَرتْ واختَفَتْ، وبدأتِ الحياةُ تستأنِفُ مسارَها من جديدٍ، بعدَ أن هلَّ الربيعُ وبدأ يكسو وجهَ الأرضِ وأغصانَ الأشجارِ ثوبًا جذابًا أخضر.

نشأت "مِهْرِمَاهْ" الجميلةُ وترعْرَعَتْ في غُرَفِ الحريمِ الفخمةِ كابنةٍ وحيدةٍ للسلطان و"خُرَّم"، إنها تقفُ الآنَ في إحدى النوافِذِ ذاتِ الأقواس الحجريّة الحادَّةِ بالقصرِ المزيَّنِ بالخَزَفِ الفيروزيّ وقد أخذَتْ تُراقِبُ بحرصٍ آفاقَ الموجاتِ البعيدةِ التي لا تَصِلُ إلى الساحل.

كانت الأميرةُ محبوبةً جدًّا من والدِها وكان يلبّي لها كلَّ طلباتِها، فها قدْ بلغتِ الأميرةُ "مهرماه" سنَّ السابعة عشرَ، وقد امتازت بحسٍّ مرهفٍ، ونالت حظًّا وافِرًا من التعليم ...

لقد كان القلبُ الرقيقُ لهذه الفتاةِ اللطيفةِ مضطربًا وخفّاقًا ومنتظرًا للأخبارِ السعيدةِ من "ديار بكر"، لقد امتلأ قلبها بالمشاعر التي تفيض أحيانًا على شفتيها لتُنشِدَ قصائدَ من الشِّعْرِ أشبهَ ما تكون بالألحانِ الموسيقيَّةِ التي تأسِر الأسماع .

* * *

لقد قرَّرَ والدُها "السلطانُ القانونيُّ" مع أمِّها "خُرَّم" أن يختاروا "رستم باشا" والي "ديار بكر" عريسًا لابنتهم الحبيبة "مِهْرِمَاهْ".... فهل يا ترى سيحظى "رستم باشا" بما يطمحُ إليه، وهل يا ترى ستُشْرِقُ شمسُ السعادةِ على قلبِ "مِهْرِمَاهْ" ؟

* * *

لا نستطيع أن نحدّد على وجه الدقَّة التاريخَ الذي وُلدت فيه "السلطانة مِهْرِمَاهْ" الابنةُ الوحيدة للقانونيّ و"خُرَّم"، إلا أنه يمكن الوصولُ إلى تاريخ ميلادِها من خلالِ معرفتِنا بتاريخِ الزفافِ الذي يُفهَم منه أنَّ تاريخَ مولِدِها يوافق عام (١٥٢٢م)[١٩٨].

صادف اليوم الذي ولدت فيه "مِهْرِمَاهْ" السنة الثانية من حكم "سليمان القانونيّ" واعتبارًا من هذا اليوم أطلقَ عليها والدها اسمًا مثيرًا وهو "مِهْرِمَاهْ" كعلامةٍ على حبّه الشديدِ لها. وتعني كلمة "ماه" في اللغة الفارسية القمرَ و"مِهْر" الشمس. ومن المحتمل أن السلطانة "مِهْرِمَاهْ" قد لُقِّبَتْ بهذا الاسمِ لجمالِها.

لقد حظيت "السلطانة مِهْرِمَاهْ" بحبٍّ وحنانٍ وافرٍ نظرًا لأنها كانت ابنةَ السلطان الوحيدة التي بقيت على قيدِ الحياة من بين أخواتها فتلقَّتْ تعليمًا جيّدًا في القصرِ وأُحيطَتْ بالرعايةِ أثناءَ نشأتِها.

ويُفْهَمُ من الأسلوبِ المُمَيَّزِ الذي نَجِدُه في الخطاباتِ التي تعودُ إلى "السلطانة مِهْرِمَاهْ" أنَّها كانت تجيدُ المناظرةَ والنقاشَ والكتابة، وأنها كانت غايةً في الذكاءِ والعلمِ، كما أنَّها كانتْ تُشبِهُ أمَّها في كثيرٍ من حركاتها وسكناتها وتصرُّفاتها وأسلوبها. [١٩٩]

(١٩٨) أُولُوجَايْ، نساء وبنات السلاطين، أَنْقَرَه، ١٩٨٠م، ص ٣٨.

(١٩٩) أُولُوجَايْ، نساء وبنات السلاطين، أَنْقَرَه، ١٩٨٠م، ص ٣٩.

لقد كان السلطان سليمان يضْعُفُ أمامَها لدرجةِ أنه كان يلبّي لها كلَّ طلباتِها في الحالِ، أما "السلطانة خُرَّم" والتي كانت تعلمُ جيّدًا مدى تأثيرِ "مِهْرِمَاهْ" على السلطان فنجدها تتوسّل إلى السلطان وتترجّاه بمكانةِ مهرماه عنده في سبيلِ تحقيقِ مطالِبِها ومن ذلك ما وجدناه في إحدى خطاباتها إلى السلطان حيث تقول:

"سلطاني أرجوكَ بمكانةِ كريمتِكَ "مِهْرِمَاهْ" عندك أن...".

ويمكنُ اعتبارُ هذا العمل من جانبِ السلطانة "خَاصَكِي" دليلٌ على مقدارِ المحبَّةِ والشفقةِ التي كان القانونيُّ يمنحُها لابنته "مهرماه"(٢٠٠).

لقد حافظت "مِهْرِمَاهْ" من جانِبِها وحتى الموتِ على هذه العلاقةِ والمحبَّةِ التي كانَ يُكِنُّها والدُها تجاهَها، كما استطاعت حتى النهايةِ أن تحافِظَ على تأثيرِها الكبيرِ ونفوذِها عند السلطان.

* * *

ولا تزالُ توجدُ حتى اليوم لوحةٌ للسلطانة "مِهْرِمَاهْ" ثلاثيّةُ الاتجاهاتِ معروضةٌ في متحفِ "بازوفيا (*Mazovia*)" في مدينةِ "بلوك (*Plock*)"(٢٠١) البولنديّة، وقد صُنِعَت تلك الصورةُ على لوحٍ من خشبِ شجرةِ الزيزفون ذي الرائِحَةِ العطِرة حيث يظهرُ أنها لوحةٌ زيتيّةٌ قد رُسِمَت بأسلوبِ "تمبرا (*tempera*)" في الرسم، أما أبعاد اللوحة فهي ٩٧ X ٦٨,٧ سم، وبالنسبة للرسام فهو غير معروف،(٢٠٢) وتبدو "مِهْرِمَاهْ" في الصورة وهي ترتدي

(٢٠٠) أُولُوجَايْ، رسائل العشق للسلاطين العثمانيين، إسطنبول – ٢٠٠١م، ص ٦٦.

(٢٠١) مدينة تاريخية تقع على ساحل "فيسكول" في الشمال الشرقي من بولندا.

(٢٠٢) هذا اللوحة كانت ملكًا حتى الحرب العالمية الأولى لعائلة "زيميا ميريسكالى سلزنيا" ثم أصبحت في عهدة عائلة "رادزويل" بمدينة "زجره" بالقرب من "وارسو"، وقد سعت هذه العائلة إلى أن تستعيد هذه اللوحة من يد الألمان الذين استولوا عليها في الحرب العالمية الثانية إلى أن انتهى بها الأمر إلى أن تكون لدى جمعية "بلوك" العلمية ثم إلى متحف "بلوك مازوفيا" بعد ذلك.

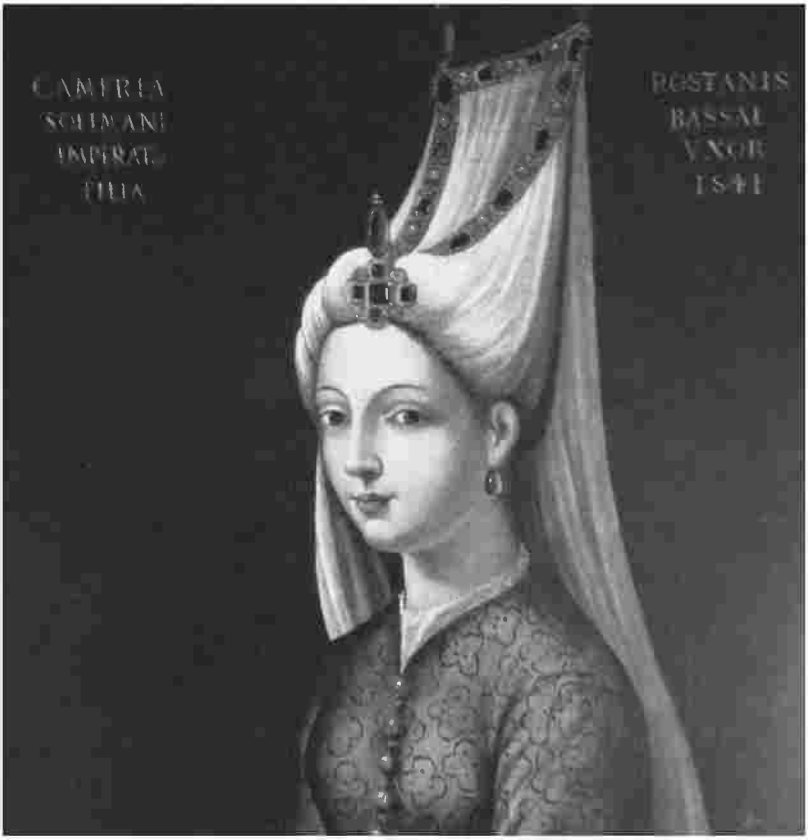

لوحة "السلطانة مِهْرِمَاهْ"

رداءً أحمر مزيَّنًا بزهرةٍ ذاتِ أربعِ أوراقٍ تيجانيّةِ الشكل،(٢٠٣) خلفيّةُ اللوحةِ سوداءُ اللونِ ومكتوبٌ على القسمِ العلويّ منها على اليسار بحروفٍ لاتينيَّةٍ "CAMARIA SOLIMA/İMP TUR/FILIA/ROSTANIS BASSAE/UXSOR/1541". فقد كانت السلطانةُ تُعرَفُ في أوروبّا باسمِ "كاماريا (*Camaria*)"(٢٠٤).

قَملة تشكل المستقبل(٢٠٥)

عندما وصلت السلطانةُ إلى سنِّ السابعة عشر بدأَ البحثُ عن زوجٍ مناسبٍ لها، ينبغي أن يكونَ هذا الزوجُ شخصًا يجمعُ بين معرفتهِ بآدابِ القصرِ إلى جانب وفرةِ العلم وعظمةِ القوّةِ، فكان "رستم باشا"(٢٠٦) -حاكمُ "ديار بكر" الذي يعرفُ جيّدًا بآدابِ القصرِ، والذي درسَ في "أندرون"- من أكثرِ الشخصيَّاتِ المناسِبَةِ لهذا الأمر.

كان "رستم باشا" بعد أن تلقى تعليمه في "أندرون" قد عُين ليعمل في الاسطبلِ الخاصّ بالسلطانِ ثم التحقَ بعدَها بالجيشِ في حملةِ "موهاج"

(٢٠٣) نظرا لوضع الحريم في ذلك العصر فإنه لم يكن من الممكن أن تقف "السلطانة خُرَّم" كموديل أمام الرسام لكي يرسم لها لوحة.

(٢٠٤) سَلْمِينْ كَنْجَالْ (*Selmin Kangal*)، الحرب والسلام، العلاقات البولندية العثمانية في الفترة من القرن الخامس عشر وحتى القرن التاسع عشر، مجلة الأوقاف، عدد خاص، أنقرة - ٢٠٠٦م، ص ١١٠).

(٢٠٥) لما انتشر خبر مصاهرة "رستم باشا" بالسلطان لم يتحمل منافسوه ذلك، وادعوا أن رستم باشا مصاب بالجذام، فبعث السلطان سليمان طبيبه الخاصّ لفحص الباشا، فوجد الطبيب أثناء الفحص قملةً في قميص الباشا، وكان من المعترف به في علم الطبّ آنذاك أن القملة لا يمكنها أن تستقر على جسد من أصيب بالجذام، وعلى ذلك سمح للباشا أن يتزوّج ابنة السلطان.

(٢٠٦) ولد "رستم باشا" أوائل القرن الخامس عشر (١٥٠٥-١٥٠٦م) وذلك في إحدى القرى الواقعة إلى الغرب من "سراييفو" و"بوتومير" بالقرب من "سراييفو"، ويروى عن عائلته أنها كانت تحمل لقب "تشيجاليتش"، أما عن أصله فيرجح أنه كان ألبانيًا أو صربيًا أو بوسنيًا أو كرواتيًا، وقد ترك "رستم" سيّدَه الغني الذي كان قد اشتراه وانتقل إلى قصر سيّدٍ جديدٍ آخر بمنطقة "جلطه" في إسطنبول مقابل دينٍ كان مستحقًّا على سيده القديم، وقد نجح "رستم" الذي كان يقوم بخدمة سيده الجديد وفي خلال فترة وجيزة في أن يلفت الأنظار إليه بفضل مهارته وموهبته، وهو ما كان السبب في إرساله إلى قصر "طوب قابي" ليكون من عبيد السلطان. (أَرْهَانْ أَفْيُونْجُو (*Erhan Afyoncu*)، "رستم باشا"، الموسوعة الإسلامية، هيئة الديانة التركية، إسطنبول - ١٩٩٨م، الجزء الخامس والثلاثون، ص ٢٨٨).

عـام (١٥٢٦م) حيـث عمل في وظيفـة "سـلحدار (*silahdar*)"[٢٠٧]، وعند انتهـاءِ الحملـةِ وقبَيْلَ عودةِ السـلطانِ "القانونيّ" إلى عاصمـةِ الدولةِ بيومٍ واحدٍ أُرسِـلَ ليعملَ سائسًـا لخيولِ القصرِ[٢٠٨] وذلك في الثاني عشـر من تشـرين الثاني/نوفمبر عام (١٥٢٦م)، وفي عام (١٥٣٦م) عُيّنَ ليكونَ أميرَ الأمـراءِ في "دولقادر" ثـم بعد ذلك عُيّنَ في ولايةِ "كارامان" ثم من بعدها انتقلَ إلى "ديار بكر" ليُصبِحَ أميرَ الأمراء هناك. [٢٠٩]

لقد كان العريسُ المرشَّـح "رستم باشـا" رجلًا عسكريًّا يتمتَّعُ بحُنكةٍ وخِبرةٍ عاليةٍ رغم أنه ليسَ وسـيم الشـكلِ والمَظهَرِ، وكما تروي لنا بعضُ المصادرِ العثمانيّةِ فقد كانت هناك شـائعاتٌ انتشـرتْ على لسـان منافسي "رسـتم باشا" عن أنه مصابٌ بمرضِ الجذام،[٢١٠] لهذا فقد أرسلَ السلطان "القانونـيُّ" واحدًا من أَطِبّائِه وهـو "محمد أغا" إلى "ديار بكر" لكي يتثبَّتَ بنفسِهِ من حقيقةِ هذه الشائعاتِ. [٢١١]

صدرًا أعظمَ في سنِّ التاسعةِ والثلاثين

تمَّ عقدُ زواجِ "السـلطانة مِهْرِمَاهْ" على "رسـتم باشـا" وذلك في حفلِ زفافٍ عظيمٍ استمرَّت مراسِـمُهُ خمسةَ عشـرَ يومًا وذلك من يوم الحادي

(٢٠٧) سِلَحْدَارْ: اصطلاح عثماني يطلق على الموظف المسؤول عن حماية أسلحة وذخائر السلطان والوزير والمحافظة عليها.

(٢٠٨) حيث كان هو الشخص المسؤول عن الخيول والعناية بها في القصر.

(٢٠٩) أُفْيونْجُو، المصدر السابق، ص ٢٨٨.

(٢١٠) مرض جلدي صعب الشفاء وسريع العدوى يظهر في صورة بُقَعٍ جلديّةٍ تنتشر في عدّة مناطق من جسم الإنسان.

(٢١١) جَاوِيتْ بَايْسُونْ (*Cavit Baysun*)، " السلطانة مهر وماه "، وزارة التربية والتعليم، الموسوعة الاسلامية، إسطنبول – ١٩٦٠م الجزء الثامن، ص ٣٠٧.

عشر إلى السادس والعشرين من تشرين الثاني/نوفمبر من عام (١٥٣٩م)، حيث أُجْرِيَ هذا الاحتفالُ بالتزامنِ مع إجراءِ حفلِ الختانِ للأميرِ "بيازيد" و"الأميرُ جِهَانْجِرْ"، وفي نفس الوقتِ ومع إجراءاتِ ومراسمِ الزواجِ تمَّ ترفيع "رستم باشا" لينالَ رتبةَ وزير.

* * *

كان النظامُ المُتَّبَعُ قبل زواجِ الأميرةِ "مهرماه" أنّ الأميرةَ حينما تتزوَّجُ تنتقلُ مع زوجِها خارجَ إسطنبول وتتبَعه إلى مكانِ إقامتِه، لكنَّ زواجَ السلطانةَ مهرماه قَلَبَ المعادلةَ وأَلغَى العرفَ القديمَ وأَنْشأَ عرفًا جديدًا وتقليدًا بديعًا داخلَ الأسرةِ الحاكمةِ، حيث إن السلطانة خرم وزوجَها القانونيَّ لم يستطيعا تحمُّلَ ألمِ فراقِ ابنتِهما المدلَّلَة الوحيدةِ، فأقامتِ السلطانةُ مهرماه في إسطنبول وأقامَ معها زوجُها، وأصبحتِ العاداتُ بعدَ ذلك الزواجِ التاريخيّ أنَّ السلطاناتِ يبقَينَ في إسطنبول ولا يتبعنَ أزواجَهُنَّ خارِجَها(٢١٢).

* * *

لقد انفتحَ طريقُ المجدِ أمامَ "رستم باشا" الذي أصبحَ من خلالِ زواجِهِ بـ"السلطانة مِهْرِمَاهْ" قريبًا من الأسرةِ الحاكمةِ، وفي عام (١٥٤١م) وعلى إثرِ عزلِ "لطفي باشا" وتعيينِ "خادم سليمان باشا" مكانَهُ كصدرٍ أعظم فقد تمَّتْ ترقيَةُ "رستم باشا" هو الآخرُ ليُصبِحَ وزيرًا ثانيًا، وفي الفترة من (١٥٤١م) وحتى (١٥٤٣م) والتي ظلَّ فيها "رستم باشا" يعملُ كوزيرٍ ثانٍ للسلطان فقد كان في الوقتِ نفسِهِ مرافقًا للسلطان "سليمان" في حملاتِهِ العسكريَّةِ على المجرِ، كانت خِبْرَةُ وقدرَةُ "رستم باشا" تزدادُ

(٢١٢) نَجْدَتْ صَقَا أُوغْلُو (*Necdet Sakaoğlu*)، " السلطانة مِهْرِمَاهْ "، موسوعة إسطنبول من الأمس إلى اليوم، إسطنبول - ١٩٩٤م، الجزء الخامس، ص ٤٥٣.

كلَّ يومٍ في مجالِ إدارةِ شؤون الدولة وكان لزوجته "السلطانة مِهْرِمَاهْ" دورٌ كبيرٌ في هذا الأمر.

وبحلول أواخرِ عام (١٥٤٤م) وقعتْ حادثةٌ أصبحَ "رستم باشا" على إثْرِها مهيَّئًا لكي ينالَ أرفعَ درجةٍ في الديوانِ السلطاني، ففي اليوم الثاني من كانون الأول/ديسمبر من عام (١٥٤٤م) وعلى إثْرِ الشِّجارِ الذي وقع بين الصدرِ الأعظمِ "خادم سليمان باشا"والوزيرِ" دَلِي خُسرو (*Deli Hüsrev*)" فقد أصدرَ السلطانُ أمرًا بعزلِهما من وظائفِهما وتعيينِ "رستم باشا" الذي كان في التاسعةِ والثلاثينَ من عمرِهِ صدرًا أعظمًا[٢١٣].

وكما تذكرُ لنا المصادرُ فقد كان للسلطانة "مِهْرِمَاهْ" و"رستم باشا" بنتٌ اسمُها "عائشة هماشاه (*Hümaşah*)"[٢١٤] وولدانِ مدفونان في ضريح "سنان الدين يوسف باشا" الموجودِ داخل مجمَّعِ "السلطانة مِهْرِمَاهْ" في منطقةِ "أسكودار"[٢١٥].

عزاء لملك بولندا "زيجموند"

لقد كانت "السلطانة مِهْرِمَاهْ" مملوءةً بالحيويّةِ كأمِّها "خُرَّم" وكانتْ تهتمُّ بأمورِ الدولةِ وشؤونِ السياسةِ الخارجيَّةِ، وكانت "مِهْرِمَاهْ" تمتلك من الشجاعة ما يمكّنها من إرسال خطاباتٍ إلى ملوكِ وحُكّامِ الدول من حولِها، ومن ذلك خطابها الذي أرسلته إلى ملكِ بولندا "زيجموند أوغسط"

(٢١٣) تدعي بعض المصادر أن "رستم باشا" قد دبّر بنفسه هذه الحادثة من أجل أن يمهّد الطريق أمامه لكي يصبح الصدر الأعظم.

(٢١٤) "السلطانة عائشة " زُوجت إلى "سميز أحمد باشا" الذي تولّى منصب الصدر الأعظم ما بين عامي (١٥٧٩-١٥٨٠م).

(٢١٥) بعد أن تزوجت "السلطانة مِهْرِمَاهْ" من "رستم باشا" أنجبت منه أكثر من ابن، حيث انجبت منه ابنتها السلطانة "عائشة" التي عاشت حتى العشرينات أو الثلاثينات من العمر، كما أنجبت منه ولدين، وقد دفن هؤلاء الأبناء في ضريح موجود بجامع "أسكودار". " (السجل العثماني، الجزء الأول، ص ٨٣).

بمناسبةِ جلوسِهِ على عرشِ بولندا بعد وفاةِ والدِهِ الملك "زيجموند"[٢١٦] الأوَّل عام (١٥٤٨م)، فنجدها ترسل إلى الحكام خطابات تعزيةٍ وتهنِئَةٍ كأمِّها "خُرَّم"،[٢١٧] وعلى إثر رَدِّ الملكِ بخطابِ شكرٍ على الخطاب الذي أرسلَتْهُ "السلطانة مِهْرِمَاهْ" فقد أرسلت له خطابًا ثانيًا وبعثت له بالهدايا مع رسولٍ خاصٍّ[٢١٨].

* * *

وفي أول الخطاباتِ التي كتبَتْها "السلطانة مِهْرِمَاهْ" إلى ملكِ بولندا نجدها تقول:

"نما إلى علمِنا خبرُ وفاةِ والدِكم، فنحن كلنا عبيدٌ لله تعالى ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ أسألُ اللهَ لكم الصبرَ وأن يبارِكَ ملككُمْ، آمين... عندما علمْنَا أنكم قد جلستُم على عرشِ بولندا سعِدْنا

(٢١٦) اعتلى "زيجموند (*Zygmund*)" الأخ الصغير لكل من "جان ألبيرت (*Jan Albert*)" و"الكسندر (*Alexander*)" عرش بولندا عام (١٥٠٦م) حيث ظل يحكم لمدة اثنين وأربعين عام وحتى وفاته عام (١٥٤٨م)، ومن أجل عدم الخلط بين الملك "زيجموند" وبين ابنه الملك "زيجموند أوغطس" فقد اصطلح على تسميته في التاريخ البولندي باسم "زيجموند العجوز (*Zygmunt Stary*)" وقد تمكنت بولندا في عهد الملك "زيجموند" من أن تحتفظ بعلاقة صداقة مستمرة مع الباب العالي -لدرجة إن هذه العلاقة تمثل حالة فريدة في تاريخ الدبلوماسية العثمانية- وذلك في مقابل ابتعادها عن المسار السياسي الذي كانت تتبعه كل من المجر ومولدوفيا.

(٢١٧) كلمات العزاء التي كتبتها "السلطانة مِهْرِمَاهْ" إلى ملك بولندا نجدها مكتوبة باللون الأسود وبخط الرقعة المركب، كما نجد ختم السلطانة أسفل الرسالة، وهذه الوثيقة المميزة نجدها مسجلة تحت اسم: *AGAD, AKW, Dz. Tur. (k. 68, t.III, no. 221'de (KDT, s.104*.

(٢١٨) إن بداية العلاقة بين بولندا والدولة العثمانية تمتد إلى القرن الخامس عشر، وقد نشأت هذه العلاقة من خلال مساعي إقامة صلح وصداقة بين كل من السلطان العثماني "محمد شلبي" وملك بولندا "جاجيللو (*Jagello*)"، حيث أثمرت هذه المساعي عن فترة سلام امتدّت لفترة طويلة، وفي عام (١٤٨٩م) تم إرسال "ميكولاج فيرلج (*Mikołaj Firlej*)" إلى إسطنبول كأول سفير لبولندا، حيث تم توقيع أول معاهدة رسمية بين بولندا والدولة العثمانية، وفي السنين التي تلت ذلك أبرمت العديد من المعاهدات والاتفاقيات وتم إرسال السفير البولندي إلى الدولة العثمانية بشكل لم يكن له مثيل مع أي دولة أخرى، (نَازَانْ أُولْجَرْ (*Nazan Ölçer*)، معرض حرب وسلام، الحرب والسلام، العلاقات البولندية العثمانية في الفترة من القرن الخامس عشر وحتى القرن التاسع عشر، مجلة الأوقاف، عدد خاص، أنقرة، ٢٠٠٦، ص ١٧).

كثيـرًا ونالنـا السـرور، ومن أجـلِ هذا فقد أرسـلتُ إلـى جنابكم السـامي أحدَ أصدقاءِ حضرةِ الباشـا (تقصدُ زوجَها "رستم باشا") مـع خطابٍ يقـوّي ويدعم صداقَتَنَا وهو "حسـن آغا"، إنني أرجو من جنابكم أن تُسـرِعوا في إعادة إرسـال مبعوثنا إليكم وذلك بعدَ أن يصلَ إلى قصرِكم ويُظْهِرَ لكم الاحترامَ والتبجيلَ، ونرجو بصفةٍ خاصَّة أن تُسـاعِدوه على إتمامِ مهمّتِه، إن رجاءَنا من الله تعالى أن يُديمَ دولتَكم، وليكن حكمُكُم مبارك بإذن الله تعالى... "

فقيرة الفقراء، خادمتكم "السلطانة مِهْرِمَاهْ"...(٢١٩).

* * *

أما الخطابُ الثاني الذي أرسـلَتْه "السـلطانة مِهْرِمَاهْ" فيُمكِنُ تلخيصُه كالتالي:

"ندعـو الله أن يطيل من عمـر جلالة الملك وعمر دولته حتى يصبـح اليـوم الواحد فيهـا كألف يوم، واعلم يا جلالـةَ الملك أنه عندما بلغَنَا خطابُكم الذي يفيضُ مودَّةً وحبًّا شعرْنَا بسعادةٍ وسرورٍ فائِقين يصعبُ التعبيرُ عنهما بالكلمات أو بالأقلام.

إن خطابكم القيّم يبيّن بوضوحٍ ترحيبكم بالعلاقة التي أبديناها إليكـم، فلقـد أظهرتم بشـكلٍ كريمٍ صداقَتَكم لنـا وقربكم منا، أما أسطرُ الصداقةِ والحبِّ التي أبديتموها للسلطان -الذي يُعدّ القادرَ الوحيدَ على أن يكونَ الملجأَ الأمين لأي شخصٍ- فإننا سعِدنا بها إلى حدٍّ كبيرٍ لا يمكنُ وصفُه بالكلامِ أو الكتابةِ.

أتمنـى مـن الله أن يهبَ لكـمُ العمرَ المديدَ والسـعادةَ الدائمةَ وقضاءَ أسعدِ الأوقاتِ...

لقـد قـال حضـرةُ السـلطان: "لقد كنـت ووالـدَه كالأخوين، وصـارت تربِطُنِـى مـع ولدِهِ صداقـةٌ، وقد حان الوقـتُ لنكنْ من

(٢١٩) أُوجْتُوغْ، المصدر السابق، ص ٧١٢-٧١٣.

الآن فصاعدًا كالأبِ وابنِه" جلالةَ الملكِ إنني أريدُ أن أبلِّغَكم بكلِّ إخلاصٍ أنه في حالِ ذِكْرِ أيِّ مسألةٍ متعلّقةٍ بكم عند السلطانِ فإنّني وزوجي "رستم باشا" سنكون إلى جانبكم.

الفقيرة المسكينة "السلطانة مِهْرِمَاهْ"). (٢٢٠)

* * *

إن كتابةَ كلٍّ من "مِهْرِمَاهْ" أو أمّها "خُرَّم" برسالةِ تعزيَةٍ وتهنئَةٍ إلى ملكِ دولةٍ غربيّةٍ يُظهِرُ بشكلٍ واضحٍ مدى اهتمام نساءِ القصرِ العثمانيّ ومدى مشاركتِهِنَّ في أمورِ السياسةِ الخارجيَّةِ في عهد "القانونيّ" والتي وصلت إلى درجةِ ولعِهِنَّ بتلك الأمور، مع أن "السلطانة مِهْرِمَاهْ" عند كتابتِها لتلك الخطاباتِ عام (١٥٤٨م) كانت في سنِّ السادسةِ والعشرين.

* * *

إن العلاقاتِ العثمانيّةَ البولنديّةَ لا تنحصرُ في مسألةِ علاقةِ حربٍ أو سلامٍ، فاعتبارًا من بداياتِ القرنِ الخامس عشَر واستمرارًا بعد ذلك إلى القرنِ السابعَ عشر والثامنَ عشر كانت العلاقاتُ الثقافيّةُ والتجاريّةُ قد بلغت ذِرْوَتَها بين الدولتين، حيث اسهَمَتْ تلك العلاقات في رقيّ الجوانب الفنّيّةِ الرفيعةِ لدى كِلا المجتمعين، لا سيّما أنّ النخبةَ في بولندا قد تأثَّرت بوضوحٍ بنمطِ الحياةِ والملابسِ والذوق التركيّ إلى جانبِ الولعِ بالسجاجيدِ والأقمشةِ التركيّةِ والغُرَفِ المفروشةِ على النمطِ الشرقيّ والإكسسواراتِ التي تزيّنُ ملابسَ الرجالِ والنساءِ والبُسُطِ والأقمشة النفيسةِ التي أُرْسِلَت كهدايا إلى الكنائسِ، ويتَّضح هذا التأثير والتأثُّر في وثائقِ الجمركِ والميراثِ في ذلك العصرِ، وهذا كله يدلُّ على وجودِ حركةٍ تجاريّةٍ قويَّةٍ وكثيفةٍ بين البلدين.

(٢٢٠) أوجْتُوم، المصدر السابق، ص ٧١٤.

كانت نتيجةُ هذا الطلبِ الشديدِ على مظاهرِ الحضارةِ العثمانيّةِ أن شُيّدت تدريجيًّا ورشٌ محلّيّةٌ في بولندا، وبدأت تلك الورشُ تتواصلُ مع المشاغلِ والمعاملِ الموجودةِ في مراكزِ صناعةِ النسيجِ المهمّةِ مثل "إسطنبول" و"بورصة"، وراحت تنتجُ منتجاتٍ شبيهةً بما تُنْتِجُهُ تلك المراكز في الدولةِ العثمانيّةِ.[٢٢١]

تكفي يدٌ واحدةٌ ولا داعيَ أن تمدَّ الأخرى

بناءً على قيامِ الأميرِ مصطفى وليّ العهدِ بالتمرُّدِ على والدِهِ السلطان فقد تـمَّ إعدامُهُ خنقًا في (اكتبه) بالقربِ من (قونيه ايرليسي) وذلك أثناءَ الحملةِ التي قادَها "سليمان القانوني" على إيران في السادس من تشرين الأول/أكتوبر عام (١٥٥٣م)[٢٢٢]، ولقد كانت هذه الحادثةُ المشؤومةُ سببًا لوقوعِ اضطرابٍ وهياجٍ كبيرٍ في أوساطِ الشعبِ والجيشِ على حدٍّ سواء، وعلى أثر هذه الحادثةِ فقد تمَّ عزلُ الصدرِ الأعظمِ "رستم باشا" في نفسِ اليومِ من وظيفتِهِ حيث إن التاريخَ قد صارَ يحكُمُ سلبًا فيما يتعلَّقُ بتلك الواقعةِ والتي أصبحَ يُذكرُ فيها اسمهُ مقترنًا بعبارةِ (مكر رستم)، ومن أجلِ أن تحميَ السلطانةُ "مهرماه" زوجَها من الإعدامِ بعد هذهِ الواقعةِ فقد لجأَتْ إلى أمّها "السلطانة خُرَّم" والتي قامت بدورِها بكتابةِ خطابٍ إلى زوجِها "السلطان سليمان" الذي كان يتواجَدُ في هذا التوقيتِ في (حلب)، حيث استعطفتْهُ في ذلك الخطابِ وطلبت منه العفوَ عن زوجِ ابنتِها.

وبعد أن تمَّ عزلُ "رستم باشا" من وظيفةِ الصدرِ الأعظمِ التي شغَلَها لمدة تسع سنواتٍ تقريبًا فقد عاد إلى القصرِ الصيفيّ الذي تملِكُهُ زوجتُه

(٢٢١) أُولْجَز: المصدر السابق، ص ١٧

(٢٢٢) تم إيضاح هذه الحادثة بشكل مفصل في القسم الخاص ب"السلطانة خُرّم".

"السلطانة مِهْرِمَاهْ" والواقعِ في منطقةِ "أسكودار"، وعلى الرغمِ من عزلِهِ من منصبِهِ فإنَّ "رستم باشا" لم يفقِدْ شيئًا من سلطتِهِ نظرًا لكونِهِ صهرَ السلطان "القانوني". (٢٢٣)

* * *

وفي عام (١٥٥٤م) ألمَّ بـ"السلطانة مِهْرِمَاهْ" مرضٌ خطيرٌ وهي في الثالثةِ والثلاثين من عمرها، وعلى الرغمِ من كلِّ الجهودِ التي بذلَهَا الأطباءُ إلا أنها لم تتحسَّنْ، وعندما علِمَ حَمُوها قبطانُ البحر "سنان باشا" بالأمرِ فقد طلبَ المساعدةَ من عبدِهِ وطبيبِهِ "بيدرو"، لكنَّه لم يذكُرْ له أن المريضةَ هي السلطانةُ الابنةُ، وعندما صارحَهُم الطبيب "بيدرو" أنه لا يُمكِنُ أن يعالِجَ المرضَ بدون رؤيةِ المريضِ وقياسِ نبضِهِ وتحليلِ البولِ رُفِعَ الأمرُ إلى "رستم باشا"(٢٢٤).

لقد كان "رستم باشا" غيورًا للغايةِ مما جعله يطلب من الطبيب "بيدرو" أن يعالِجَ زوجتَهُ "مِهْرِمَاهْ" بدون أن يراها وذلك من خلالِ الحديثِ معه هوَ دونَ أن يقابِلَها، لكن مع إلحاحِ الطبيبِ فقد رضيَ "رستم باشا" بأن يُحيلَ المسألةَ إلى "السلطانة مِهْرِمَاهْ" لكي تقرِّرَ هيَ ما تراه مناسبًا، وفي النهايةِ نجحَ "بيدرو" في أن يدخلَ إلى غرفةِ السلطانةِ المريضةِ، إلَّا أنَّ

(٢٢٣) يذكر " بوسبيك (*Busbecq*) " السفير الألماني الذي وفد إلى إسطنبول عام (١٥٥٥م) في مذكراته الشهيرة: " على الرغم من المدة التي بقيها "رستم" باشا معزولًا من منصب الصدر الأعظم فقد كنا نقوم بزيارته ونقدم له الهدايا حيث كان لدينا قناعة بأن هناك احتمال أن يعود "رستم" باشا في المستقبل إلى موقعه القديم ". (أَفْيُونْجُو، المصدر السابق، الجزء الخامس والثلاثون، ص ٢٨٣).

(٢٢٤) يحكي الطبيب الأسباني "بيدرو" تلك الواقعة على النحو التالي:

" لقد أخبرني سيدي "سنان باشا" بأن حياته هو وأخيه "رستم باشا" مرتبطة بشفاء هذه المريضة، وأن موتها سيعني هلاكهما، من أجل هذا فإني سأقوم بما يمكن عمله وسأصنع اللازم من أجل شفاء السلطانة وسيقوم بعتقي إذا نجحت في هذا الأمر، وقد أجبته بأنني لا أريد أن أعتق لأنني إذا صرت حرًا فإنني سأصبح بلا سندٍ أو كفيلٍ، لكنني من أجل الامتثال لأوامره فقد أخبرته بأنني سأبذل قصارى جهدي، وبناء على ما ذكرته فقد أرسلني " سنان باشا " إلى قصر أخيه " (ترجمة: فؤاد جَارِمْ (*Carım*)، إسطنبول في عصر القانوني، إسطنبول – ١٩٦٤م، ص ٣٥).

الطبيبَ اندهشَ عندما اقتربَ من فراشِ السلطانةِ، فقد كانت "السلطانة مِهْرِمَاهْ" مغطاةً ومستَتِرةً وملتحفةً تمامًا بملاءةٍ ذاتِ خيوطٍ وضفائرَ ما عدا إحدى يديها التي كانت بارزةً.

* * *

وها هو الطبيبُ "بيدرو" يحكي لنا في مذكّراتِهِ ما وقع في تلك الحادثة:

"بعد أن غسلت يديّ بفوطة كبيرة قمتُ بقياسِ نبضِها، وعلى الرغمِ من شعوري برغبةِ زوجِها في أن أكتفي بهذا القدرِ إلا أنّني لم أُبالِ، وقلتُ باللغةِ التركيّةِ: "اعطِني يدَكِ الأخرى يا سلطانتي"، فأدخلتِ السلطانةُ يدَها تحتَ الغطاءِ ثمَّ مدَّتِ الأخرى إليّ، وعندها وجدتُ "رستم باشا" يُعْرِبُ عن ضيقِهِ وعدمِ ارتياحِهِ -بمجرَّدِ أن قمتُ بقياسِ النبضِ- قائلًا: "حسنًا، لنذهب الآنَ يكفي يدٌ واحدةٌ فقط"، حينها قلْتُ للسلطانة متظاهِرًا ببرودةِ الأعصابِ التي يقتضيها الموقفُ الذي كنتُ فيه – وباللغة التركية مرَّةً أخرى: "سلطانتي هل من الممكنِ أن تُخرجي لسانَكِ؟"، فما كان من السلطانة إلا أن أخرجَتْ رأسَها وذراعيها من تحتِ الغِطاء، ثم أخرجت لسانَها وهي تنظر بحدّةٍ إلى زوجِها، فلم يستطعْ "رستم باشا" أن يَنْبِسَ ببنتِ شفةٍ أمام تصرُّف زوجته السلطانة، أما أنا فقد قلت من جانبي "سيكونُ هناكَ تحسُّنٌ وتغيُّرٌ للأفضلِ خلالَ خمسة عشرَ يومًا إن شاءَ اللهُ" وقبلت "السلطانة مِهْرِمَاهْ" بتناولِ وأخذِ أيّ نوعٍ من أنواعِ العلاجِ باستثناءِ الأدويةِ المسهِّلَةِ وفصدِ الدم وذلك لأنها قد عانت كثيرًا من هذه العلاجات التي وصَفَهَا لها الأطباءُ مرّاتٍ عديدة، فقلتُ لها: "إنَّهُ من الضروريّ أن تأخذِي شرابًا حلوَ المذاقِ سأعطيكِ إياه الآن"، وعندما قالت حسنًا انسحبْتُ منتقلًا إلى جناح "رستم باشا")[٢٢٥].

(٢٢٥) جَارِمْ، المصدر السابق، ص ٣٦-٣٧.

وخـلالَ فتـرةٍ وجيزةٍ من التـداوي بالعلاجـاتِ التي وصَفَهـا الطبيبُ "بيدرو" كانت "السلطانة مِهْرِمَاهْ" قد استردَّت صحَّتَها.

"بيازيد" لا يأبَهُ بالنصيحة

بعد عزلِ "قره أحمد باشـا" ثم مقتلِهِ في التاسـع والعشرين من أيلول/ سـبتمبر عـام (١٥٥٥م) تولَّـى "رسـتم باشـا" للمـرَّةِ الثانيةِ مقـامَ الصدارةِ العظمى.

كانت أهمُّ الأحداثِ التي وقعَتْ خلالَ الفترةِ الثانيةِ من تولّي "رسـتم باشـا" لمقام الصدرِ الأعظمِ هو الصراعُ الذي نَشَـبَ بين الأميرين "بيازيد" و"سـليم" على العـرش، حيث إنَّ الفرصةَ قد أصبحَتْ متاحةً بشـكلٍ أكبر أمام "الأمير بيازيد" بعد موتِ الأميرِ مصطفى، لكن بوفاةِ والدتِهِ "السلطانة خُـرَّم" قـد فقدَ "الأمير بيازيد" أهمَّ سـندٍ بالنسـبةِ إليه، ولـم يعدْ هناك الآنَ من ناصرٍ أو معينٍ لهُ في القصرِ سـوى "رسـتم باشـا" زوجُ أختِهِ "السلطانة مِهْرِمَـاهْ"، وذلك لأن "السـلطان سـليمان" بعد وفاةِ زوجتِـهِ "خُرَّم" أصبح مرتبطًا بشكلٍ كاملٍ بابنتِهِ "مِهْرِمَاهْ".

لكنّ تصرّفاتِ وقراراتِ "بيازيد" الطائشـةِ والغيرِ مسؤولة كانت تضـعُ أختَـه "مِهْرِمَـاهْ" في موقفٍ صعبٍ من ناحيةٍ، ومن ناحيةٍ أخرى تُعَرْقِلُ هذهِ التصرُّفاتُ جهودَ الحفاظِ على حبلِ المودَّةِ مـع أخيها "سليم"، ففي الواقـعِ كان "سـليم" ينتهِزُ بدورهِ كلَّ فرصةٍ من أجلِ إشـعارِ أختِهِ الكبيرةِ "مِهْرِمَاهْ" بأنَّها تأخذُ موقفًا مؤيّدًا لأخيها "بيازيد".

* * *

وعندما علِمَ السـلطان "القانوني" بالخلافات التي كانت بين الأميرين عاقبَهُما بشـكلٍ متسـاوٍ وبدونِ أن ينحازَ إلى أيٍّ منهما حيثُ قامَ بإرسـالِ

"الأمير سليم" ليكونَ واليًا على "قونيه" أمّا "الأمير بيازيد" فقد أرسله ليكونَ واليًا على "أماسيا".

لم يعترضِ "الأمير سليم" على ما قامَ به والِدُه، لكنّ "بيازيد" ظلَّ في مدينةِ "كوتاهية" وكان يتصرَّفُ بشكلٍ يعبّرُ عن عدمِ رغبتِهِ في الذَّهابِ إلى "أماسيا" بحجَّةِ أنَّ هذا الأمرَ يهدُفُ إلى إبعادِهِ عن إسطنبولَ وجَعْلِ "سليم" هو القريبُ من العرش، كان "بيازيد" في تلك الأثناءِ يُرسِلُ بالخطاباتِ إلى أختِهِ الكبيرةِ "السلطانة مِهْرِمَاهْ" ويريدُ منها أن تبذُلَ جهدَها في صالِحِهِ عند والِدِها.

أما "السلطان القانوني" الذي كان يدرُسُ الشكاوى الواردةَ من "سليم" فقد طلبَ من ابنتِهِ "مِهْرِمَاهْ" أن تكتبَ لأخيها رسائلَ تنصحُهُ فيها، وأن تقدِّمَ له الخطاباتِ القادمةَ إليها من "بيازيد"، كما طلبَ منها الردَّ على شكاوي "سليم"، أما "السلطانة مِهْرِمَاهْ" والتي كانت من جانبها في غاية الضيق بسبب كونها في موقف وضعها بين أبيها وأخيها فقد أرسلت بخطابٍ سرّيّ إلى "بيازيد" لم تترك فيه شيئًا لم تذكره فيه،(٢٢٦) حيث أوصتْه في هذا الخطابِ بالذهابِ على الفورِ إلى ولايةِ "أماسيا" التي كلِّف بتولّي إدارتها، ونجدُ أنَّ "السلطانة مِهْرِمَاهْ" بعد أن بدأَتْ خطابَها إلى أخيها "بيازيد" بكلماتٍ فاترةٍ فقدْ أخذتْ تستخدِمُ معهُ لهجةً قاسيةً ناصحةً إيّاهُ بألا يتصَرَّفَ على نحوٍ يؤذي بِهِ نفسَهُ، وفي النهايةِ قام السلطان "القانوني" بإرسالِ كلٍّ من "صُوكُولْلُو بَاشَا" إلى "الأمير سليم" و"برتف باشا" إلى "الأمير بيازيد" كناصحين إلى كلٍّ منهما، لم يُبْدِ "سليم" اعتراضًا على ما ذكره الناصحُ كما أعربَ عن تقبّلِه لما جاءَ به، أمَّا "بيازيد" فلم يلقِ بالًا لقدومِ "برتف باشا"، قائلًا:

(٢٢٦) محمود آق، " السيدة مؤسسة الوقف: "السلطانة مِهْرِمَاهْ"، مجلة الأوقاف، أنقرة – ٢٠٠٦م. (عدد خاص: عام ثقافة الوقف) ص ٨٣.

"على الرغمِ من أن إسطنبول مملوءَةٌ عن آخرها بالعلماءِ الكبارِ والشيوخِ المبجَّلين، إلا أنه من المدهش ألّا يُرسِلَ إليَّ واحدًا من هؤلاء ليُسدِي إليَّ النصيحةَ وينيرَ ليَ الطريقَ، فعلى الأقلِّ أمثالُ أولئكَ العلماءِ يمكنُ أنْ أستهدي بهديِهم وأن أسترشِدَ بأفكارِهِم".

وعلى هذا النحوِ فقدْ أخذَ يسخرُ من الرجل المخضرمِ الذي أرسلهُ إليه أبوه .

وعلى الرغمِ من عدمِ إلقاءِ "بيازيد" البالَ إلى نصيحةِ الناصحين -بمن فيهم أخته الكبرى- فقد ذهب إلى "أماسيا"، ومن هناك أخذَ "بيازيد" في التخطيطِ للوصولِ إلى العرشِ من خلالِ إعدادِ العدَّةِ من أجلِ التحرُّكِ لملاقاةِ أخيه "سليم" عسكريًّا متَّخذًا في ذلك من جدِّه السلطان "سليم ياووز" مثلًا أعلى أمامه، لكن جدَّه السلطان "سليم ياووز" كانت تسحرُه الشجاعةُ والكفاءة العسكريّةُ التي كان يتحلّى بها، وبعد وقتٍ قصيرٍ تحرَّكَ "الأمير بيازيد" إلى "قونيه" على رأسِ القوَّات التي جمعها في الثلاثين من أيار/مايو عام (١٥٥٩م) وبدأ في قتالِ القوَّاتِ التي كانت تحتَ إمرةِ أخيه "سليم"، لكن جيشَهُ-أي بايزيد- هُزم بعد مناوشاتٍ بسيطةٍ، فانسحبَ، واضطَرَّ حينَها "بيازيد" إلى العودةِ إلى"أماسيا"، إلا أنه لم يستطِعِ أن يستقرَّ به الحالُ هناك أيضًا.

نهاية "بيازيد" الحزينة

عندما وصلَ "الأمير بيازيد" -الذي لم يستَطِع التفاهُمَ مع والدِهِ وأخيهِ "الأمير سليم"- إلى مشارف "أرضروم" أخذَ يبذُلُ قصارى جهدِهِ في العملِ على إقامةِ اتّصالٍ مع والدِهِ السلطان، وفي سبيلِ ذلك نجدُهُ

قد سعى وحاول الوصولَ إلى كلِّ الأطرافِ المحيطين بوالدِهِ والذينَ بإمكانهم أن يؤمّنوا له المساعدةَ والعونَ في هذا الصدد.

وفي الخطابِ الذي كتَبَه "بيازيد" إلى "السلطانة مِهْرِمَاهْ" نجدُهُ يبدأُ كلامَهُ قائلًا: "أختي العزيزة، أختي السلطانة" ويذكرُ بعد ذلك أنه قد جاءَ إلى هنا لكي يتمكَّنَ من النجاةِ بحياتِهِ، كما نجدُهُ يسعى في التذلُّلِ إلى والدِهِ لكي ينالَ منه العفوَ قائلًا:

"إذا ما نالني عفوُكَ وأمانُك، فواللهِ لن أرحلَ إلى أيِّ مكانٍ".

كذلك نراهُ يرسِلُ السلامَ إلى كلٍّ من "رستم باشا" وابنةِ أختِهِ "عائشة هماشاه"، ويُنْهي "بيازيد" خطابَهُ قائلا:

"صغاري يقبّلون أيدي عمتهم، نشتاق إلى رؤياكم قبل أن يوافينا الأجل"(٢٢٧).

.توفيَ الصدرُ الأعظمُ "رستم باشا" في الثاني عشر من حزيران/يونيو من عام (١٥٦١م) بسبب مرضِ الاستسقاءِ عن عمرٍ يتراوحُ بين الخامسةِ والخمسينَ والستين، حيث ظلّتْ بعدَ ذلك "السلطانة مِهْرِمَاهْ" أرملةً بعدَ زواجٍ استمرَّ سبعَ عشرةَ عامًا.

وقد فضلت "السلطانة مِهْرِمَاهْ" أن تنسحِبَ إلى القصرِ القديم بعد وفاةِ زوجِها متخلّيَةً عن فِكرةِ الزواجِ مرّةً ثانيةً، هذا وقد خصّصت لها الدولةُ دخْلًا كبيرًا يُقارِبُ الستّمِائة قطعة من الفضة.

* * *

وبعد حوالي العام من حدوثِ ذلك وفي نهايةِ مساوماتٍ طويلةٍ أجراها "الأمير سليم" مع شاهِ إيرانَ تمَّ الاتفاقُ بينهما على إعادةِ "الأمير بيازيد"،

(٢٢٧) آق، المصدر السابق، ص ٨٣.

وفي الخامس والعشرين من أيلول/سبتمبر عام (١٥٦١م) تمَّ إعدامُ "الأمير بيازيد" خنقًا بوَتَرِ القوسِ في (قزوين).[٢٢٨]

مساعدتها في تجهيز حملة "مالطه"

بدأت "السلطانة مِهْرِمَاهْ" بعد وفاةِ "الأمير بيازيد" في تحسينِ العلاقاتِ مع "الأمير سليم" الذي كانَ هو المرشّح الوحيدُ للجلوسِ على العرشِ، في هذه الأثناء كانتْ هناكَ رغبةٌ لدى "سليمان القانونيّ" والديوانِ السلطانيّ في فتحِ جزيرةِ "مالطه"، حيثُ كانت تلك الجزيرةُ تهدّدُ أمنَ التجارةِ العثمانيّةِ في البحرِ الأبيضِ وكذلك تهدّدُ أمنَ سواحلِ شمالِ أفريقيا، وأيضًا فقد كانت تأتي التقاريرُ من "تورجوت ريس باشا" سنة (١٥٦٥م) والتي تُشيرُ إلى أهمّيّةِ هذا الموقعِ، بالإضافةِ إلى ذلك فقد كانت "السلطانة مِهْرِمَاهْ" الابنةُ الحبيبةُ للسلطانِ "سليمان القانوني" تذكرُ أنَّ فتحَ "مالطه" هو مسألةٌ مهمّةٌ جدًّا بالنسبةِ لها، ومن أجل ذلك نرى أنَّ "السلطانة مِهْرِمَاهْ" قد ساندت بمالِها وثروتِها في إعدادِ هذهِ الحملةِ العسكريّةِ المجهَّزةِ في سبيلِ الفتحِ، فنجد أنّ "مِهْرِمَاهْ" كانت تجهّزُ من مالِها الخاصّ السفنَ البحريَّةَ بما تحتاجُهُ من مستلزماتٍ.

كلُّ شيءٍ خاضعٌ لقدرةٍ إلهيّةٍ

بعد أن مرَّ عامٌ واحدٌ على حملةِ "مالطه" وبينما كانَ "بياله باشا" منشغلًا بفتحِ جزيرة "صاكيز" كان "سليمان القانوني" الذي يبلغ من العمر اثنين وسبعين عامًا يستعدُّ لحملةٍ جديدةٍ على النمسا (زيجتفار)، في هذه الأثناءِ

(٢٢٨) إن هذه الحادثة المؤلمة تظهر لنا أن التأثير المزعم أنه كان واقعًا على السلطان "القانوني" من قبل زوجته "السلطانة خُرّم" وابنته "السلطانة مِهْرِمَاهْ" وزوجها "رستم باشا" الذين كان يوصفوا بأنهم عصابة القصر لم يكن كبيرًا بالدرجة التي صورت. كما تعتبر هذه الحادثة دليلًا واضحًا على أن الأمير "بيازيد" قد تعرض لنفس المصير الذي انتهى إليه أخوه الأكبر مصطفى وأن القانوني لم يكن تحت تأثير هؤلاء الثلاثة، حيث إن من يسوقون مثل هذه الإدعاءات يذكرون أن هذه العصبة كانت تريد تولية "بيازيد". (أَكْشونْ، المصدر السابق، الجزء الأول، ص ٣٢٢).

كان السلطانُ يعاني من مرضِ "النقرس" الذي ورثَهُ من أجدادِهِ، وعلى الرغمِ من إخبارِ الأطبَّاءِ لهُ من أنه لن يتمكَّنَ من تحمُّلِ مشاقِّ الحربِ إلا أنه قرّرَ أنْ يخرُجَ للغزْوِ وكان يقول:

"إنَّ كلَّ شيءٍ يتوقّفُ على القدرةِ الإلهيّةِ". (٢٢٩)

وبناءً على المصادرِ التاريخيّةِ، فقد كان السلطانُ دائمًا ما يدعو ويتضرَّع إلى الحقِّ تعالى أن يقبِضَ روحَهُ وهو يُؤَدّي مهمَّتَهُ المقدَّسةَ في إعلاء كلمة الله ﷻ، وبهذا الشكل فقد كان السلطانُ العادلُ يعلمُ أنهُ يقتربُ من النهاية. (٢٣٠)

وقد استجابَ اللهُ ﷻ لدعاءِ عبدِهِ المخلِص، حيث إنَّ السلطانَ قد وافَتْهُ المنيَّةُ في ليلة السادسِ من أيلول/سبتمبر عام (١٥٦٦م) عندَ مشارفِ قلعةِ "زيجتفار".

* * *

عندما علم "الأمير سليم" بنبأِ وفاةِ والدِهِ أتى من "كوتاهية" إلى إسطنبول، وفي قصرِ "طوب قابي" التقى مع أختِهِ "السلطانة مِهْرِمَاهْ" حيث تباحثَ معها في الموقِفِ، وكما يذكر في كتاب "تاريخ سلانيكي" فقد تشاورَ "سليم" مع السيدة السلطانةِ "مهرماه" باعتبارِها الأكبر والأعلى مكانةً في كلِّ الأمور.(٢٣١)

(٢٢٩) بناء على هذه الرواية فإن "السلطانة مِهْرِمَاهْ" قد شجعت مع "صوكوللو محمد باشا " والدها "السلطان سليمان" على الخروج للغزو والجهاد، أما بالنسبة السلطان "القانوني" فإن الاستماع لهذه الكلمات التي تبين درجة تعلقه بالحياة يظهر لنا مدى عظمة هذا الرجل. (دَانِشْمَنْد. المصدر السابق. الجزء الثاني، ص ٣٤٢).

(٢٣٠) أُكْسُوْنْ، المصدر السابق، الجزء الأول، ص ٣٣١.

(٢٣١) كانت "السلطانة مِهْرِمَاهْ" هي أول من بايعت أخيها "الأمير سليم" عند دخوله إلى قصر "طوب قابي"، وقد ملكت قلب أخيها السلطان "سليم" عندما قالت وهي غارقة في دموعها: " إن نار الحسرة والتفكر تصاحب الباكي المنتحب الذي قد احترق وانتهى... " ويقال إنها قد أقرضت في الحال أخيها خمسين ألف قطعة ذهبية من أجل الإنفاق على أمور مثل الصدقة والإحسان وذلك حتى لا تعرض خزينة الدولة لأيّ وضع سيّء. (دَانِشْمَنْد، المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ٣٦٢).

وقد أعطتْ "السلطانة مِهْرِمَاهْ" خمسينَ ألفَ قطعةٍ ذهبيّةٍ من ثروتِها إلى أخيها السلطان "سليم الثاني" الذي لم يكنْ راضيًا عن العجزِ الذي كان موجودًا بخزينةِ الدولةِ العثمانيّةِ[٢٣٢] وبفضل التضحية التي قامت بها السلطانة فقد شعر السلطان الجديد بارتياحٍ شديدٍ في هذا الوقت الضيق والحسّاس، وغطّى بهذا المبلغ نفقاتٍ ضروريّةٍ وهامّة بالنسبة للدولة.[٢٣٣]

وفاةُ السلطانةِ الخيرة!

لقد كانت "السلطانة مِهْرِمَاهْ" بعد وفاةِ "سليمان القانوني" عام (١٥٦٦م) وفي عهدِ أخوها "سليم الثاني" وحفيدِهِ "مراد الثالث" من أكثرِ السيدات نفوذًا سواء بين نساءِ القصرِ أو عموم الحريم.

إن هذه السيّدة المحبّةَ للخيرِ والتي أمضتْ الفترةَ الأخيرةَ من حياتِها في القصرِ القديمِ الذي يُطِلُّ على ميدانِ "بيازيد" الذي ارتبطَتْ به ارتباطًا وثيقًا قد رحلت عن عالَمِنا إلى دارِ البقاءِ إثرَ مرضٍ مفاجِئٍ وهيَ في سنٍّ صغيرةٍ نسبيًّا عن عمرٍ يناهزُ السادسةَ والخمسين، حيث جاءت وفاتُها بعدَ عِدّةِ أيّامٍ من وفاةِ قائدِ البحريَّةِ الكبير "بياله باشا (*Piyale Paşa*)" في الحادي والعشرين من كانون الثاني/يناير عام (١٥٧٤م)[٢٣٤].

وقد كتب عنها المؤرخ "مُنَجّمْ بَاشِي (*Müneccimbaşı*)" الذي يُعْتَبرُ من مؤرخينا المعروفين قائلًا:

(٢٣٢) أوزمَان، المصدر السابق، الجزء الثلاثون، ص ٤٠.

(٢٣٣) في الغالب كانت "السلطانة مِهْرِمَاهْ" صاحبة ثروة كبيرة للغاية امتلكتها عندما ضمت الميراث الكبير الذي انتقل إليها من زوجها "رستم باشا" إلى الممتلكات التي كانت ممنوحة لها من والدها السلطان، وقد فضلت "السلطانة مِهْرِمَاهْ" أن توجه هذه الثروة التي بلغ عائدها في اليوم ألفي قطعة ذهبية إلى أعمال الخير والإعمار. (صفا أوغلو، المصدر السابق، ص ٤٥٣).

(٢٣٤) بناء على ما يذكر الرحالة الألماني "ستيفن جيرلخ" فإن هذا التاريخ كان يوافق الخامس والعشرين من تشرين الأول/أكتوبر سنة (١٥٧٤م).

"كان والدُها يُكِنُّ لها حبًّا جمًّا لكونِها راجحةَ الرأيِ وصاحبَةَ أعمالٍ خيريّةٍ".

وقد دُفِنَتِ السلطانة بجامعِ "السليمانية" في ضريحِ والدها الفخمِ الذي يقعُ جهةَ القِبْلَةِ(٢٣٥).

لعبتِ "السلطانة مِهْرِمَاهْ" دورًا كبيرًا في التاريخِ العثمانيّ كالسلطان "القانوني" و"السلطانة خُرَّم" وزوجِها "رستم باشا" ويرجعُ هذا إلى أنها قد أمضتْ حياتَها في عصرٍ عاشت فيهِ شخصيَّاتٌ مؤثّرةٌ.

كذلك فقدْ لعِبَتِ "السلطانة مِهْرِمَاهْ" دورًا مهمًّا من خلالِ علاقاتِها مع إخوتِها، حيث إنها اضطرَّت إلى الانحيازِ إلى أحدِ إخوتِها وذلك بسبب الظروفِ السياسيّةِ التي مرَّتْ بها البلادُ في هذه الفترة، وعلى هذا النحوِ فقد أصبحَتْ "مِهْرِمَاهْ" من الأسماءِ المهمّة التي تركَتْ بصمةً في التاريخِ العثمانيّ، مع ذلك نجدُ أنَّ أكثرَ المعالمِ الموجودةِ اليومَ والتي تُعَبّرُ لنا عن شخصيّةِ "السلطانة مِهْرِمَاهْ" هي الأوقافُ التي أنشأَتْها والخدماتُ التي قدَّمَتْها تلك الأوقافُ والتي تعكِسُ مشاعرَها الطيّبَةَ وحبَّها للمساعدةِ والخير وكرمَها الوافرِ.

لقد أنشأتِ "السلطانة مِهْرِمَاهْ" ما لا يُعَدُّ من الأوقافِ في سبيلِ أن تكونَ تلك الأوقافُ معينةً لها على الظفَرِ برضا اللهِ ونيلِ شفاعةِ النبيّ ﷺ وقد استطاعت أنْ تفوزَ بمكانةٍ متميّزةٍ على صفحاتِ التاريخِ بفضلِ ما خصَّصَتْهُ أيضًا من إمكاناتٍ ضخمةٍ في سبيلِ أن تكونَ هذه الأوقافُ قادرةً على الاستمرارِ في العطاء.

وسوف تظل "سلطانة مِهْرِمَاهْ" تحافِظُ على مكانَتِها المرموقةِ في قلوبِ المسلمين كلَّما استمرَّت هذه الخدماتُ الخيريَّةُ التي قدَّمَتْها.

(٢٣٥) أكْسُونْ، المصدر السابق، الجزء الأول، ص ٣٧٤.